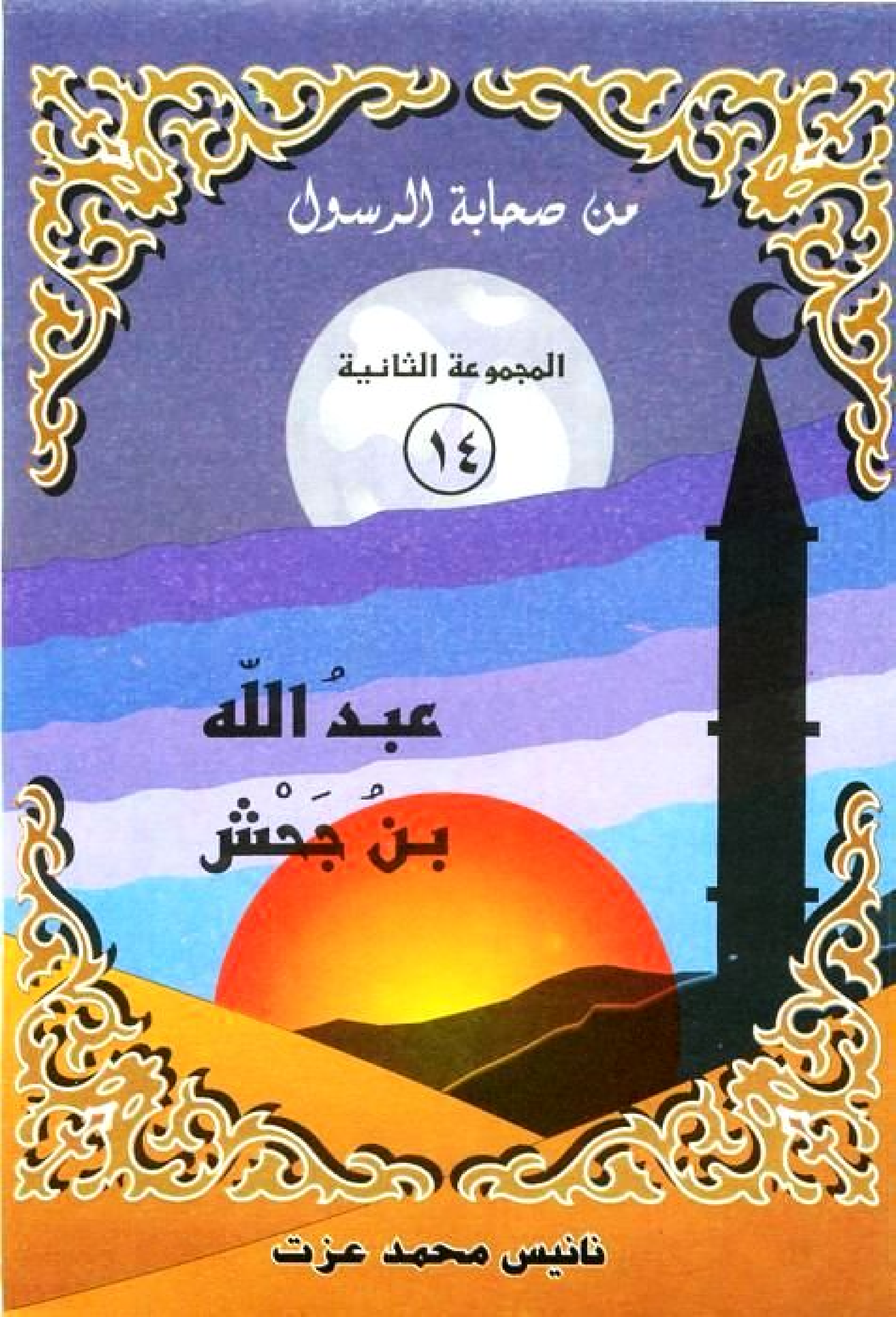

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١٤
عبدُ اللّه
بنُ جَحْش
نانيس محمد عزت

عبد الله بن جحش

قرَّرتِ المدرسةُ أن يزورَ التّلاميذُ ملجأً للأطفالِ اليَتامَى ، واقترحَ ناظرُ المدرسةِ على التّلاميذ أن يُحضِرَ كلٌّ واحدٍ منهم هديَّةً يُقدِّمُها إلى أطفالِ الملجأ . ولِكيلا يشُقَّ على التّلاميذِ قال : من الُممكن أن تكونَ الهديَّةُ شيئا عندنا نستَطيعُ أن نَستغنِيَ عنه ، أو أن نشتَرِيَ لهم هَديَّةً جَديدة .

قال أحمدُ لأُمِّه : سأُهدى لأطفالِ الملجأ صِدارى (بلوفرى) الصُّوفِيُّ الأحمر . ولكنّه تَراجعَ بعد قليلٍ وقال : بل سأُهدى لهم صِدارِىَ الأزرقَ ذا الُمربّعات .

ويَحلو الصِّدارُ فى عينِ أحمَد فيتَراجعُ مرَّةً ثانيةً ويقول : أعتَقدُ أنَّ الصِّدارَ الأخضرَ هو الهَديَّةُ الُمناسِبة .

لم تَرضَ والدَةُ أحمدَ عن اختْيارِ ابنِها ، فقالت له : إن حالَ الصِّدارِ الأخضرِ غيرُ جيِّدَة ، فلماذا بَخِلتَ بالصِّدارِ الأحمَر ، ثمَّ بالصِّدارِ الأزرَق ؟

قالَ أحمد : لأنّى أُحبُّهما فحالَتُهما جيِّدَة .

قالتْ والِدَتُه : المَفروضُ يـا أحمَـد أن تـأخُذَ معكَ هَدِيَّـةً جَديدَة ، أو هَدِيَّةً شبهَ جَديدة ، فلماذا البُخلُ يـا وَلـدى ؟ ألم تَعلم أنَّ السَّيدَةَ فاطِمة ابنةَ النَّبىّ ـ رضِـىَ اللّـهُ عَنهـا ـ كـانت تَجلـو النُّقـودَ وتُنَظِّفُهـا قبـل أن تُعطيهـا الفُقَـراء ، وتَقول : إنَّها تقعُ فى يدِ اللّهِ سُبحانَه ، قبلَ أن تقعَ فـى يدِ الفَقير .

وذاتَ يومٍ ذبحَ النَّبِيّ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ شاةً ، وعندَما حضرَ وسألَ عنها قالتْ له زَوجُـه : ذَهبَـتْ كلُّها ـ لأنَّها تَصدَّقت بها ـ وبَقيَتِ الكَتِف . فقالَ ـ صلّى اللّـهُ عليه وسلّم ـ بل قولى بَقيَتْ كلُّها وذَهبَتِ الكَتِف .

سألَ أحمَد : ماذا كانَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ يَقصِـدُ بذلِك ؟

قالتُ والِدَته : كانَ يَقصِد أنَّ ما تصدَّقت به زوجُـهُ هـو

الباقى عندَ اللّه ، أمّا ما بَقِيَ منها ليُؤكلَ فهو الفانى .

قالَ أحْمَد : أَترَيْنَ أن أُهدى إلى الفُقراء الصّدارَ الأحْمَر ؟

قالتْ والِدتُه تُشجِّعُه : بالطَّبعِ يا أحْمَد ، وسوف يُبدِلُك اللّهُ خيرًا منه سواءً فى الدُّنيا أو فى الآخِرَة . أتعلَمُ يا أحْمَدُ أنَّ عَبدَ اللّهِ بنَ جَحش ، أحدَ أقاربِ النَّبىِّ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلَّم ـ كانت له دارٌ رائِعَةُ الجَمال ، وعندَما هاجر إلى المَدينَةِ وتَركَها فارًّا بدينِه ، استَولى عليها أبو جَهل ؟ وعِندما اشْتكى ذلك إلى الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلَّم ـ قالَ له : ألا تَرضَى يا عبدَ اللّهِ أن يُعطِيَكَ اللّهُ بها دارًا فى الجنَّة ؟

قالَ عبدُ اللّه : بلَى يا رسولَ اللّه .

قالَ : فذلِكَ لك .

وفرِحَ عبدُ اللّهِ بذلك ، وقَرَّت عَينُه .

قالَ أحْمَد : هل لكِ أن تَحكى لى قِصَّتَهُ يا أُمّى ؟

قالتْ والِدَته : نعم ســأحْكي لـك قِصَّتَـه ، ولكـن اسْمَـع القِصَّةَ يا أحْمَد وعِها جيِّدا .

كان عبدُ الله بنُ جَحش ابنَ عمَّةِ رَسولِ اللّــه ــ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ــ فأمُّه هى أُمَيمَةُ بنتُ عبدِ المُطّلب ، عمّـةُ الرّسول ، وهو فى ذاتِ الوقتِ صِهرُ الرّسول ، لأنّ أختَـهُ زينبَ بنتَ جَحش ، كانت زوجًا للنبيِّ ــ صلّى اللّـهُ عليه وسلّم ــ وإحدَى أُمَّهـاتِ المُؤمنين . وكـان عبدُ اللّـهِ من السّابقينَ إلَى الإسْلام ، فأسلمَ قبلَ أن يدخُـلَ الإسلامُ دارَ الأرقم . وقد عانَى عبدُ اللّـهِ مثـلَ كـلِّ المُسلِمينَ الأوائـلِ بطشَ قُرَيشٍ وجَبروتِهـا ، فهـاجرَ هـو وبعـضُ ذَويـهِ إلى الحَبَشةِ فى الهِجرَتَينِ الأولَى والثّانِيَة .

وعندَما نجحَ مُصعبُ بنُ عُميرٍ فـى مُهِمَّتِهِ كـأَوّلِ سَفيرٍ للإسْلامِ فى المدينـة ، ودخـلَ الكثيرُ مـن أهـلِ المَدينَـةِ فـى الإسْلام، وأصبحتِ المدينـةُ دارًا آمنـةً للمُسلِمين ، أمـرَ

الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ أصحابَهُ بالهِجرَةِ إلى المَدينَة . فسارَعَ عبدُ اللّهِ بنُ جَحش بتَلبيَةِ أمرِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ بالهِجرَة ، فكانَ ثانِيَ مُهاجرٍ إلى المَدينةِ بعدَ « أبي سَلَمة » .

وكانتْ هجرَتُهُ هذه أعمَّ وأشمَل ، إذ هاجرَ معهُ أهلُهُ وذَووهُ وسائرُ بني أبيه ، رِجالاً ونِساءً وأطفالا ، فقد كانَ بيتُه بيتَ إسْلام ، وكانت قَبيلَتُه قبيلَةَ إيمان .

قالَ أحمد : من الطَّبيعِيِّ أن يُسلِمَ كلُّ أهلِ بَيتِه ، فهم أقرِباءُ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ وأحقُّ النّاسِ بالإيمان به وتَصديقِه .

ابتَسمتْ والِدَةُ أحمَد ، وقالَت : لا عَلاقَةَ لِلقَرابَةِ بالإيمان . أنَسيتَ أبا لَهَب ، فقدْ كانَ عمَّ الرَّسولِ وكانَ من أشَدِّ الكُفّارِ عَداوَةً له .

ونَعودُ لدِيارِ جَحْش بعدَ هِجرَةِ أهلِها ، فنَجدُها

خاويةً حَزينةً على فِراقِ أَهلِها ، وإنْ كانتْ من أَعظمِ دِيارِ مَكّةَ وأجمَلِها . فنجدُ أبا جَهلٍ لم يَكتَفِ بهجرَةِ أهْلِها منها ، بل وضعَ يدَهُ واستَولَى على دارِ عَبدِ اللّهِ بنِ جَحْشٍ فقد كانتْ أجمَلَ هذهِ الدّيارِ وأغْناها ، وتصرّفَ فيها وفى متاعِها كما يَتصرّفُ المالِكُ فى مِلكِه .

وعندَما اشْتكى عبدُ اللّهِ ذلكَ لِلرّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ قال له : إنّ اللّهَ سيُبدِلُهُ خَيرًا مِنها دارًا فى الجَنّة ، فقرّت عَينُهُ واطْمأَنّ .

اسْتقَرّ عبدُ اللّهِ وأَهلُهُ بالمَدينَة ، ونزَلوا علَى عاصِمِ بنِ أبى الأفْلَح ، ليَبدأَ عبدُ اللّهِ صَفحةً جَديدَةً من حَياتِه ، مَليئَةً بالجِهاد فى سَبيلِ اللّه ، والعَمَلِ على رَفْعِ رايَةِ الإسْلام .

وعرفَ الرّسولُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ قدرَ عبدِ اللّهِ وفَضلَهُ ومكانَتَه ، فعيّنه أَميرًا على أوّلِ سرِيّةٍ فى الإسلام .

تساءَلَ أحمَد : أهى غزوةُ بدرٍ يا أُمّى ؟

قالتْ والِدَتُه : إنّ غَزوةَ بَدرٍ هى أوّلُ غَزوَةٍ مُنظَّمَة ، يخرُجُ فيها الرّسول ــ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ــ بنفسِه ، ولكنْ سَبَقَتْها سَرايا كَثيرَة ، تضُمُّ أعْدادًا قليلةً من المُسلِمين ، لتَستَطلِعَ أخبارَ قُريشٍ أو غيْرِها من القَبائِلِ المُجاوِرَة ، فكانتْ والحالَةُ هَذه سَرايا استِكشافِيَّة أو سَرايا استِطلاعِيَّة .

وكان عبدُ اللّهِ بنُ جَحشٍ ، أميرًا على أولَى هذه السَّرايا ، وكان جَميعُ المُسلِمينَ يَطمَعونَ فى نَيلِ هذا الشَّرَف ، ولكِنّه ــ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ــ قالَ : « لأبعَثَنَّ عَليكُم رجُلاً أصبرَكُم على الجوعِ والعَطَش » .

وكانتْ السَّرِيَّةُ تتألَّفُ من ثمانِيَةٍ من المُهاجرين ، حدَّدَ لهم ــ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ــ وِجْهَتَهم ، وأعطَى عبدَ اللّهِ كِتابا ، وأمرَه ألاّ يَنظُرَ فيه إلاّ بعدَ مَسيرَةِ يَومَين .

وفى المَوعِدِ المُحدَّد ، فتحَ عبدُ اللّـهِ الكِتابَ فإذا فيه : « إذا نظَرتَ فى كِتابى هذا فامْضِ حتّى تَنزِلَ بلدَةَ « نَخلَة » ، بينَ مكّةَ والطّائف ، فترصُدَ بها قُرَيْشًا ، وتعلَمَ لنا من أخْبارِهِم » .

ويخبرُ عبدُ اللّهِ إخوانَهُ بوِجهَتِهم ، ويُخبرُهُم كما أمرَه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ إمّا بالمُضِىِّ معه ، وإما بالعَودَةِ إلى المَدينَة . فكانَ جوابُ القَوم : سمعًا وطاعَةً لرَسولِ اللّه . إنّما نَمضى معكَ حيثُ أمرَكَ نَبىُّ اللّه .

وعندَ « نَخلَةَ » أبْصَروا قافِلَةً لقُرَيشٍ تَحمِلُ الجُلودَ والزّبيب ، وأشياءَ أُخرَى مما تُتاجِرُ به قُرَيش . وكانَ على القافِلَةِ أربعةُ رجال ، وكانَ الوقتُ آنذاك هو اليَومُ الأخيرُ من الأشهُرِ الحُرُم . فقالوا : إن قتلْناهُم فإنّما نقتُلُهم فى الأشْهُرِ الحُرُم ، وفى ذلكَ إهدارٌ لحُرمَةِ هذا الشَّهر ، والتَعرُّضُ لسُخطِ العَربِ جَميعا . وإنْ أمْهلناهُم حتّى

يَنقضِىَ اليَوم ، دخَلوا أرضَ الحَرَمِ وأصْبحوا فى مَـأمَنٍ منّا» .

وبعدَ تَشاوُرٍ فيما بَينَهم ، قرَّ رَأيُهم علَى أن يُغيروا علَى القافِلَة ، وهذا مـا حـدثَ فِعـلاً فقَتلـوا أحدَهُـم ، وأَسـروا اثْنَيْن ، بَينَما فرَّ الرّابعُ هارِبا .

قال أحمَد : لا بدَّ أنَّ الرَّسولَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ فَرِحَ بنصرِ أصْحابه ، وبالغَنيمَةِ الكَبيرَة .

قالَت والِدَتُه : على عَكسِ ذلِك يا وَلَدى ، فقد اسْتَنكَرَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسـلّم ـ فَعلَتَهـم ، وقـال : « واللّـهِ مـا أمرتُكُم بقِتال ، وإنّما أمرتُكُمُ أن تَقِفوا على أخْبارِ قُرَيش ، وأن تَرصُدوا حركَتَهُم » .

ثُمَّ أوقَفَ الأَسيرَينِ حتّـى ينظُـرَ فـى أمْرِهمـا ، وأعـرضَ عن الغَنائم ولم يأخذْ مِنها شَيْئا .

قالَ أحمد مُتعجّبا : أمَعقولٌ هذا ؟

قالتْ والِدَته : كان للعَربِ آنذاكَ عاداتٌ وتَقاليدُ يجبُ ألاّ تُمَسَّ أو تُخالَف ، فاتّخذتْ قُريشُ هذا المَوقِفَ ذَريعَةً وأذاعَتْ بينَ القبائِلِ أنَّ مُحمَّدًا يَستحِلُّ القَتلَ والدِّماءَ والأسْرَ والأَموالَ في الشَّهرِ الحَرام .

وحزِنَ عبدُ اللّهِ وأُسقِطَ في يَدِه ، فقدْ عَصَى أمرَ الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ وزادَهُ حُزْنًا تَعنيفُ المُسلِمينَ فأوَى إلى بَيتِه حَزينا ، وقضَى أيّامًا سَوداءَ يَنتظِرُ عفوَ الرَّسولِ عنه .

واشتَدَّ عليه الكَربُ والبَلاء ، وضاقَت به الدُّنيا .

وأخيرًا جاءه البَشيرُ يُبشّرُهُ بما أنزَلَ اللّهُ من قُرآنٍ في شأنِه، فقالَ تَعالَى : « يَسألونَكَ عن الشَّهرِ الحَرامِ قِتالٍ فيه ، قلْ قِتالٌ فيه كَبيرٌ وصدٌّ عن سَبيلِ اللّهِ وكُفرٌ بهِ ، والمَسجدِ الحَرامِ وإخْراجُ أهلِهِ مِنهُ أكبَرُ عِندَ اللّهِ والفِتنَةُ أكبَرُ منَ القَتلِ » .

وعندَما سمِعَ عبدُ اللّهِ الآيات ، هبَّ من فَورِهِ وانْطلَقَ فى الطُّرُقاتِ إلى الرّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ مكبِّرًا : اللّهُ أكبَر ، اللّهُ أكبَر » .

وعندَئذٍ أمرَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ بتَقسيمِ الغَنائم ، وفداءِ الأسيرَينِ اللّذيْنِ ما لبِثَ أحدُهما أن أسْلم .

قال أحمد : لا بدّ أنّ عبدَ اللّهِ فَرِحَ كثيرًا بالبَراءَة .

قالتْ والِدَته : بكلِّ تأكيد . فالغَزوةُ كانتْ حَدَثًا كَبيرًا فى حَياةِ المُسلِمين ، وغَنيمَتُها أوّلَ غَنيمَةٍ أُخِذَت فى الإسْلام ، وأسيراها أوّلَ أسيرَيْنِ وقَعا فى أيْدى المُسلِمين ، ورايَتُها أوّلَ رايَةٍ عَقدَتْها يدُ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ وأميرُها عبدُ اللّهِ بنُ جَحش ، أوّلُ مَنْ دُعِيَ بأميرِ المُؤمِنين .

وتأتى بعدَ ذلكَ غَزوَةُ بَدْر ، ويُلبّى عبدُ اللّهِ النّداءَ مُسرِعا أمَلاً فى الاسْتِشْهادِ فى سَبيلِ اللّه . ولكنَّ اللّهَ

أمهَلَهُ إلى يَومِ أُحُد .

وفى يَومِ أُحُد ، عندَما كان كلُّ من فى المَيْدانِ مُستَعِدّينَ لِقتالِ عَدوِّهم ، نادَى عبدُ اللّهِ سعدَ بنَ أبى وقّاصٍ قال : ألا تأتى نَدعو اللّه ؟

ودعا سعدٌ بقَولِه : اللّهمَّ إذا لَقيتُ العدُوَّ غَدًا فلقِّنى رجُلاً شديدًا بأسُه ، شديدًا حَرْدُه ، فأَقتُلُه فيك وآخُذُ سَلَبَه . وأمَّنَ عبدُ اللّهِ على دُعائه ، ثُمَّ دَعا عبدُ اللّهِ بقَولِه : اللّهُمَّ ارزُقنى غَدًا رجُلاً شديدًا بأسُه ، شَديدًا حَرْدُه ، أقاتِلُهُ فيك ، ويأخُذُنى فيَجدَعُ أنفى وأذنى ، فإذا لقيتُك قلتَ لى : يا عبدَ اللّهِ فيمَ جُدِعَ أنفُكَ وأُذُنكَ ، فأقول : فيكَ وفى رَسولِك .

وبدأتِ الحَرب ، وكانَتْ مَعركَةً شَديدَةَ البأس رَجحَتْ فيها كِفّةُ المُسلِمين ، فاسْتَطاعوا أن يَحصُدوا الكَثيرَ من رُءوسِ الشِّركِ والعِصْيان . إلى أن عَصَى الرُّماةَ أمرَ

الرَّسولِ ـ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم ـ ونَزَلوا عن الجَبل ، فاسْتَطاعَ خالدُ بنُ الوَليد أن يجمَعَ شملَ الكُفّارِ ويَستولى على الجَبَل ، ويُعيدَ الهُجومَ على المُسلِمين .

هنالِكَ حلَّ الهَرْجُ والمَرْجُ صُفوفَ المُسلِمين ، وأشاعَ الكُفّارُ أنَّ مُحمَّدًا ـ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم ـ قد قُتِل . فصَمدَ عبدُ اللّهِ بنُ جَحشٍ صُمودَ الأبْطال ، ودافعَ بعُنفٍ ولآخرِ نَفَسٍ فى جَسدِه عن الإسْلام . ولَقِيَهُ أبو الحكَمِ بنُ الأخْنسِ بنُ شُرَيق ، ودارَتْ بينَهُما مَعركَةٌ طاحِنَة ، أبلَى فيها عبدُ اللّهِ بلاءً حَسنا ، ولكنَّهُ استُشهِدَ فى آخرِها .

قال أحمَد : لقدِ استجاب اللّهُ سُبْحانَهُ وتعالَى دُعاءَه .

قالَت والِدَته : والأعْجبُ من ذلِك أنَّ أبا الحكَم ، من فَرطِ غَيظِهِ ممّا لاقَى من مُقاوَمَةِ عبدِ اللّه جدَعَ أنفَهُ وأُذُنَه ، وعلَّقَهُما بخَيطٍ فى شَجَرة .

وبعدَ انْتِهاءِ المعرَكَةِ رأى سعدُ بنُ أبى وقّاصٍ جُثْمانَ

عَبدِ اللّهِ وقد جُدِعَ أنفُه وأُذنُه فقال : كانتْ دَعوتُكَ يا عَبدَ اللّهِ خيرًا من دَعوتى .

قالَ أحمد : يا سُبحانَ الله ! كأنّه تنبّأَ بما سيُلاقى .

قالتْ والِدَةُ أحمد : بل كانَ يتمنّى ميتةً مشرّفةً فى سَبيلِ اللّه . وسَيستَجيبُ اللّهُ لباقى دُعائِه ، ويَردُّ على سُؤالِ ربِّهِ بقَولِه : فيكَ وفى رَسولِك .

وزيادةً فى تَشريفِ عَبدِ اللّهِ أمرَ الرَّسول ــ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ــ أن يُدفَنَ مع عَمِّهِ حَمزَةَ بنِ عبدِ المُطّلِب فى قبرٍ واحد .

* * *

قال أحمد : شُكرًا جَزيلاً لكِ يا أُمّى ، فإنّها قِصّةٌ شائِقةٌ حَقّا .